كتاب ذم الجاه والرياء

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، أما بعد: فإن الرياء هو الشهوة الخفية، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء فضلًا عن عامة العباد والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكائدها، وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم؛ فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة دعائه، وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات، وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضهم وقرين، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية، ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله؟ والنفس قد أبطنت هذه

الشهوة تزيينًا للعباد وتصنعًا للخلق وفرحًا بما نالت من المنزلة والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقرّبين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقرّبون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة.

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه، ويتضح الغرض منه في تريب الكتاب على شطرين؛ الشطر الأول: في حب الجاه والشهرة، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول، وبيان ذم الجاه، وبيان معنى الجاه وحقيقته، وبيان السبب في كونه محبوبًا أشدّ من حب المال، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم، وبيان العلاج في حب الجاه، وبيان علاج حب المدح، وبيان علاج كراهة الذم، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم.

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت:

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم، بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه، وقال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال أيوب السختياني: والله ما صدق الله عبدٌ إلا سَرَّه أن لا يُشعر بمكانه. وعن خالد بن معدان: أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة. وعن أبي العالية: أنه كان إذا جلس إليه من ثلاثة قام. وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر، فعلاه بالدرة قال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع، وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يومًا من منزله فاتبعه ناس فالتفت إليهم

فقال: علام تتبعوني فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان. وقال الحسن: إنّ خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى. وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقي هذا من قلب المؤمن. ورُوي أن رجلًا صحب ابن محيريز في سفر فلما فارقه قال: أوصني، فقال: إن استطعت أن تَعرِف ولا تُعرَف وتمشي ولا يُمشى إليك وتسأل ولا تُسأل فافعل، وخرج أيوب في سفر فشيعه ناس كثيرون فقال: لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عَزَّوَجَلَّ. وقال الثوري: كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعًا. وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال: أخمل ذكرك وطيب مطعمك، وكان حوشب يبكي ويقول: بلغ اسمي مسجد الجامع. وقال بشر: ما أعرف رجلًا أحبَّ أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح. وقال أيضًا: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

بيان فضيلة الخمول:

قال رسول الله ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**ألا أدلكم على أهل الجنة: كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ**» [متفقٌ عليه]، وقال ﷺ: «**إنّ من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارًا لم يعطه إياه ولو سأله درهمًا لم يعطه إياه ولو سأله فلسًا لم يعطه إياه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياه**» [رواه الطبراني في الأوسط الصحيحة: ٢٦٤٣].

وقال محمد بن سويد: قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبي ﷺ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال: يا رب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة! فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام، وأمطروا حتى صاح

أهل المدينة من مخافة الغرق، فقال: يا رب، إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم، وسكن، وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال: إني أتيتك في حاجة! فقال: ما هي؟ قال: تخصني بدعوة، قال: سبحان الله! أنت أنت، وتسالني أن أخصك بدعوة؟ ثم قال: ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني. وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى، أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض. وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده: ألم أنعم عليك! ألم أسترك! ألم أخمل ذكرك! وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من ارفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أرفع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك. وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء. وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تُعرف فافعل، وما عليك ألا تعرف وما عليك أن لا يثنى عليك وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت محمودًا عند الله تعالى؟ فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول، وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل فساد.

فإن قلت: فأي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء! فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم. نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فإنهم يتعلقون به، فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك.

بيان ذم الجاه ومعناه:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعًا. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وهذا أيضًا متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها.

بيان معنى الجاه وحقيقته:

اعلم أن الجاه والمال هما رُكنا الدنيا. ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها، وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يبغي ملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه. وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات، فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالًا في نفسه بل يكفي أن يكون كمالًا عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالًا كمالًا، ويذعن قلبه للموصوف به انقيادًا ضروريًا بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال للقلب. وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحبه الجاه أعظم، لأن المالك يملك العبد قهرًا والعبد متأب بطبعه، ولو خُلِّي ورأيه لانسل عن الطاعة،

وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعًا ويبغي أن تكون له الأحرار عبيدًا بالطبع والطوع، مع الفرح بذلك، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير. فإذًا معنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فيقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب يكون فرحه وحبه للجاه. فهذا هو معنى الجاه وحقيقته، وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإنَّ المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده، فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب، ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاده صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالًا، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سببًا لقيام الجاه، والله تعالى أعلم.

بيان سبب كون الجاه محبوبًا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة:

اعلم أن السبب الذي يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوبًا هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبًا، بل يقتضي أن يكون أحب من المال، كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانهما، إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح، ولا ملبس، وإنما هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه، فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض، فالاشتراك في السبب اقتضى

الاشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال، وللملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول- أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزًا ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له، فإذًا الجاه آلة ووسيلة إلى المال، فمن ملك الجاه فقد ملك المال، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال، فلذلك صار الجاه أحب.

الثاني- هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يُسرق ويُغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن، ويتطرق إليه أخطار كثيرة، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والغصاب، والجاه في أمن من الغصب والسرقة فيها. نعم إنها تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر بمحاولة فعله.

الثالث- أن ملك القلوب يسري وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضًا له، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر. لأن ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم، فلا يزال يسري من واحد ويتزايد وليس له مردّ معين، وأما المال، فمن ملك منه شيئًا فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة، والجاه أبدًا في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال.

فإن قلت: فالإشكال قائم في المال والجاه جميعًا، فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه، نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه، فحبه للمال والجاه معلوم، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثًا، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعًا أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع، ويكاد يظن أن ذلك جهل، فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة؟ فنقول: نعم، هذا الحب لا تنفك عن القلوب، وله سببان: أحدهما: جلي تدركه الكافة، والآخر: خفي، وهو أعظم السببين، ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلًا عن الأغبياء، وذلك لا ستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون.

فأما السبب الأول- فهو دفع ألم الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مولع، والإنسان وإن كان مكفيًا في الحال فإنه طويل الأمل ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة، فهو أبدًا لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدّر طول الحياة؛ ويقدر هجوم الحاجات؛ ويقدّر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك

قال رسول الله ﷺ: «**منهومان لا يشبعان: طالب علمٍ وطالب مالٍ**» [صحيح الجامع: ٦٦٢٤]، ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم؛ ومهما كان ذلك ممكنًا ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلًا إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

وأما السبب الثاني وهو الأقوى: أن للقلب ميلًا إلى صفات كالأكل والوقائع، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء؛ وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة، والإغواء، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية التوحيد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال. فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوبًا للإنسان، والكمال بالتفرد بالوجود، فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصًا في حقها، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية والمنفرد بالإيجاد هو الله تعالى، [ولم يكن معه موجود سواه]، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال، بل الكامل من لا نظير له في رتبته. وكما ان إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانًا في الشمس بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعًا ولا يكون متبعًا، فإذا معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال. وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: كم من إنسان في باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ولكنه ليس يجد له مجالًا وهو

كما قال، فإن العبودية قهر على النفس، والربوبية محبوبة: بالطبع وذلك للنسبة الربانية التي أومأ إليها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥]، ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهي محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته، ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته. وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات؛ فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فإن لم يكن منك، فأن تكون مستوليًا عليه، فصار الاستيلاء على الكل محبوبًا بالطبع، لأنه نوع كمال. وكل موجود يعرف ذاته فإنه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخرًا لك كيف تشاء، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه، إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته، وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولي عليه قدرة الخلق، كالأملاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين؛ وكالجبال والبحار. وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان، ومن جملتها قلوب الناس، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات.

فإذًا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات، أحب الإنسان أن يستولي على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها، فإن ذلك نوع استيلاء؛ إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم، والعلم كالمستولي عليه، فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب، وجميع عجائب السموات، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها، والاستيلاء نوع كمال. وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها.

وأما القسم الثاني- وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد، وهي قسمان: أجساد، وأرواح.

أما الأجساد: فهي الدراهم والدنانير والأمتعة، فيحب أن يكون قادرًا عليها يفعل فيها ما شاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فإن ذلك قدرة والقدرة كمال، لذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه، وبذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار، وإن لم يملك قلوبهم، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبًا لها ويقوم القهر منزلته فيها، فإن الحشمة القهرية أيضًا لذيذة لما فيها من القدرة.

القسم الثاني- نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية، والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال، فإن كل كمال محبوب، وهو الذي لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله، فإذًا معنى الجاه تسخير القلوب، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها، والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية. فإذًا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه من أسباب القدرة، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات، وما دام يبقى معلوم، أو مقدور، فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول. ولذلك قال ﷺ: «**منهومان لا يشبعان**»، فإذًا مطلوب القلوب الكمال. والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبًا، وهو أمر وراء كونه محبوبًا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض، بل ربما

يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات، لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية، فكان محبوبًا بالطبع، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لابد من بيانها إن شاء الله تعالى.

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم:

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال، فإنه عرض من أغراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مزرعة الآخرة، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة، وكما أنه لابد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس، فلابد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، ورفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم، فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال، فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى أن يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء [أي الحمام في مفهومنا الحالي] لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء، فهذا على التحقيق ليس محبًا لبيت الماء، فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب وهو المقصود المتوصل إليه. وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة، كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام، ولو كفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته، كما أنه لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت

الماء ولا يدور به، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كُفي الشهوة لبقي مستصحبًا لنكاحها؛ فهذا هو الحب دون الأول، وكذلك الجاه والمال. وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين، فحبها لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة معصية. وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة، فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي.

فإن قلت: طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان؛ أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص؟ فأقول: يطلب ذلك على ثلاثة أوجه: وجهان مباحان، ووجه محظور.

أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها، مثل العلم والورع والنسب، فيظهر لهم أنه عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك. فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة.

أما أحد المباحين: فهو أن طلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف ﷺ فيما أخبر عنه الرب تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظًا عليمًا، وكان محتاجًا إليه وكان صادقًا فيه [قلتُ: لو أراد بذلك نفع المسلمين، فنعم، ولكن لو طلبها حبًا في المنزلة والسلطة، فهذا مذموم، وكذا لو طلبها عجبًا أو رياءً].

والثاني- أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به، فهذا أيضًا مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح. وهذا ليس فيه تلبيس، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به

[قلتُ: لو طلب بإخفاء عيوبه الستر على نفسه، فنعم، ولكن لو قصد بذلك قيام المنزلة والتعظيم وعدم سقوط المنزلة، فهذا مذموم].

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراءٍ بما يفعله، فكيف يكون مخلصًا؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذلك بكل معصية، وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع، فإن مِلك القلوب أعظم من مِلك الأموال.

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه:

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أقواها أسباب:

شعور النفس بالكمال، فإنا بينا أن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ. فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واعتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جليًا ظاهرًا أو يكون مشكوكًا فيه، فإن كان جليًا ظاهرًا محسوسًا كانت اللذة به أقل، ولكنه لا يخلو عن لذة كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون، فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك، فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق، فإن الإنسان ربما يكون شاكًا في كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقًا إلى زوال هذا الشك بان يصير مستقينًا لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في

القول إلا عن تحقيق، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه في غاية اللذة، وإن صدر ممن يجارف في الكلام أو لا يكون بصيرًا بذلك الوصف ضعفت اللذة، وبهذه العلة يبغض الذم أيضًا ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذمّ من بصير موثوقٍ به كما ذكرناه في المدح.

بيان علاج حب الجاه:

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفًا بالتودد إليهم والمراءات لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتًا إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءات بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين، وروي «**أنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل**» [ضعيف السند، صحيح المعنى]، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك هو عين النفاق.

فحب الجاه إذًا من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال؛ وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على اشخاص الناس وعلى قلوبهم، ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له. فهذا لا ينبغي أن يُترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي صغر الجاه في عينه، إلا

أنّ ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز: (أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات). فانظر كيف مدّ نظره نحو المستقبل وقدره كائنًا، وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه: (أما بعد: فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل)، فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أنّ العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، وقال عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشدّ تغيرًا من القدر في غليانها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض، فكل ما يُبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء، كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه، فلا يفي في الدنيا مرجوّها بمخوفها فضلًا عما يفوت في الآخرة، فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة. وأما من نفذت بصيرته وقوي إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا، فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما من حيث العمل: فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذه القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق [ولكن دون ارتكاب المحرمات]، وأمَّا الذين اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه، [فهذا] غير جائز فلا

يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عن الناس؛ كما يروي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد، فلما علم بقربه منه استدعى طعامًا وبقلًا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني، وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول، فإنّ المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته، فإنه ربما يظن أنه ليس محبًا لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت نفسه لأنه قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عمّا اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، ويتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة. ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه، فإنَّ فتنة الجاه أعظم، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس ما دام يطمع في الناس رأسًا أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى عن الناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع. ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة، وينظر في أحوال السلف وإيثارهم الخمول على العز، ورغبتهم في ثواب الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم:

اعلم أنَّ أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفًا من الذم، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقُهُ ملاحظة الأسباب التي لأجلها بحب المدح ويكره الذم.

وقد قدمنا أنَّ أعظم سبب: هو استشعار الكمال بسبب قول المادح، فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك، وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بهاأم لا؟ فإن كنت متصفًا بهافهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية، فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيمًا تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل بل العاقل يقول كما قال المتنبي:

أشدّ الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها. وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع، فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخطر الخاتمة باق، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا، بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح، فإن اللذة في استشعار الكمال، والكمال الموجود من فضل الله لا من المدح، والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح، والمدح لا يزيدك فضلًا وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خالٍ عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول: سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه وما أطيب الروائح

التي تفوح منه؟ إذا قضى حاجته، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به، والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك، كان ذلك في غاية الجهل، فإذًا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

ثم إنّه ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به - كما نقل ذلك عن السلف - لأنه آفة المدح على الممدوح عظيمة - كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان - قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه. وقال بعضهم: إذا قيل لك: نعم الرجل أنت، فكان أحب إليك أن يقال له: بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل، وقال ﷺ: «**إذا رأيتم المادحين فاحثوا على وجوههم التراب**» [رواه مسلم]، فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلًا عن شيء فقال: أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم، فغضب وقال: إني لم آمرك بأن تزكيني، وقيل لبعض الصحابة: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله، فغضب وقال: إني لأحسبك عراقيًا. وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبغض إليهم مدح الخلق، لأن الممدوح هو المقرَّب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق. ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قلَّ التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه. والله الموفق للصواب برحمته.

بيان علاج كراهة الذم:

قد سبق أن العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضًا يفهم منه والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال:

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة؛ وإما أن يكون صادقًا ولكن قصده الإيذاء والتعنت، وإما أن يكون كاذبًا.

فإن كان صادقًا وقصده النصح، فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منته، فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه وكراهته له وذمك إياه فإنه غاية الجهل، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلًا به، أو ذكرك عيبك إن كنت غافلًا عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته. وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة، فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة. فمهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت لا تدري، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لِتلويثك مجلسه بالعذرة فقال قائل: أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك، فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمة، وجميع مساوئ الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إنما يعرف عيوبه من قول أعدائه فينبغي أن تغتنمه.

وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه، وهو نعمة منه عليك، فلِمَ تغضب بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به؟!!

الحالة الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى، فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدهما – أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برئ عنه.

والثاني – أن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك، فكأنه رماك بعيب أنت برئ منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقرِّبك إلى الله تعالى، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله!!

وأما الثالث – فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرَّض لعقابه الأليم، بل ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم اهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم ارحمه، كما قال ﷺ: «**اللهم اغفر لقومي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**». [متفق عليه]، لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد. ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال: علمت أني مأجور بسببه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقبًا بسببي، ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع، إن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه، وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه، وما دام الطمع قائمًا كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالبًا، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفه، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين، فلا ينبغي أن يطمع المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه، فإن ذلك بعيد جدًا.

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

اعلم أنَّ للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح:

الحالة الأولى – أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم، ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية – أن يمتعض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته. ويفرح باطنه، ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

الحالة الثالثة – وهي أوَّل درجات الكمال أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة. وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورًا إن لم يمتحن نفسه بعلاماته، وعلاماته أن لا يجد في نفسه استثقالًا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موت المادح المطري له أشدَّ نكاية في قلبه من موت الذام، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام. فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه، فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشدّه على القلوب! وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام، والشيطان يحسن له ذلك ويقول: الذام قد عصى الله بمذمتك، والمادح قد أطاع الله بمدحك، فكيف تسوّي بينهما؟ وإنما استثقالك للذام من الدين المحض. وهنا محض التلبيس، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصي أكثر مما

ارتكب الذام في مذمته، ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم، ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره، ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه، والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره. فإذًا العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه فيزيده ذلك بعدًا من الله، ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وأفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوّت عليه الدنيا ويخسره في الآخرة، وفيهم قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

[قلت: من لم يجد ذلك الاستواء في قلبه، فلا أقل من أن يتكلف معاملة الذام كالمادح ظاهريًا والمداومة على ذلك مع كراهية ما يجد في قلبه].

الحالة الرابعة - وهي الصدق في العبادة؛ أن يكره المدح[ولايحب] المادح، إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين، [ولا يكره] الذام إذ يعلم أنه مُهدٍ إليه عيبه ومرشد له إلى مهمة ومهد إليه حسناته.

أما الدرجات في المدح فهو أن الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائي بالعبادات، ولا يبالي بمقارفة المحرمات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح، وهذا من الهالكين.

ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا على شرف جرف هار، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها، فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جدًا.

ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه، فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور

إلى الرتبة التي قبلها وإن جاهد نفسه في ذلك وكلَّف قلبه الكراهية وبغَّض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح، فهو في خطر المجاهدة، فتارة تكون اليد له، وتارة تكون عليه.

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه، وهذا على خير، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص.

ومنهم من يكره المدح إذا سمعه، ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له، فإن ذلك عين النفاق، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه؛ وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام، وأوَّل درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح، ولا يكون الفرح وإظهار الغضب إلا ممن في قلبه حنق على نفسه [العاصية] لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدو، والإنسان يفرح ممن يذم عدوّه،وهذا شخص عدوه نفسه [الأمارة بالسوء] فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لمّا وقف على عيوبها، فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه، ويكون غنيمة عنده إذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يُبتلى بفتنة الناس، إذ سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خيرًا لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها، ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة، وهو أن يستوي عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره. وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذا إحداها، ولا يقطع شيئًا منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل. [قلتُ: يكفيه أن يكلِّف نفسه الكراهية للمدح ويُلِّح على ربه في أن يرزقه الإخلاص وعدم الفرح بمدح الناس ثمّ مع إدمانه لمراجعة عيوب نفسه يصل إلى كراهية المدح وأمّا المجاهدة المجردة التي ذكرها الصوفية فهي تضييع للوقت].

الكلام على طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

بيان ذم الرياء:

اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤-٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، قال مجاهد: هم أهل الرياء. قال مجاهد: هم أهل الرياء. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، فمدح المخلصين ينفي كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضده. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وأما الأخبار: قال أبو هريرة في حديث الثلاثة - المقتول في سبيل الله، والمتصدق بماله، والقارئ لكتاب الله، كما أوردناه في كتاب الإخلاص -: وإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول لكل واحد منهم: كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ، فأخبر الله أنهم لم يثابوا وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم، وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من راءى راءى الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به**» [متفقٌ عليه]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء**» [السلسلة الصحيحة: ٩٥١]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **من عمل لي عملًا أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك**» [رواه مسلم]، وقال عيسى المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلًا**

تصدق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله» [رواه مسلم بمعناه ولفظ «ظل العرش» ليس في الكتب الستة ولكن صححه البعض].

وأما الآثار: فيروى أنّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى رجلًا يطأطئ رقبته قال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب، ورأى أبو أمامة الباهلي رجلًا في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم. وقال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله، أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك... الحديث. وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر، فقال له: أتحب أن تمقت؟ قال: لا، فإذا عملت لله عملًا فأخلصه. وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك، ولايقولن هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له. وضرب عمر رجلًا بالدرة ثم قال له: اقتص مني! قال: لا بل أدعها لله ولك، فقال له عمر: ما صنعت شيئًا إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده، فقال: ودعتها لله وحده، فقال: فنعم إذن. وقال الحسن: لقد صحبت أقوامًا إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة، ويقال: إن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي، يا غادر، يا خاسر، يا فاجر، اذهب فخذ أجرك مما عملت له فلا أجر لك عندنا. وقال الفضيل بن عياض: كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون. وقال عكرمة: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأنّ النية لا رياء فيها. وقال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو

رجل صالح، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء؟ فلابدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه. وقال قتادة: إذا راءى العبد يقول الله تعالى: «**انظروا إلى عبدي يستهزئ بي**». وقال مالك ابن دينار: القرَّاء ثلاثة: قرّاء الرحمن، وقرّاء الدنيا، وقرّاء الملوك، وإنّ محمد بن واسع من قرّاء الرحمن. وقال الفضيل: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إليَّ. وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار، لأن السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. وقال أبو سلمان: التوقي عن العمل أشدّ من العمل، وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أراد أن يشتهر.

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به:

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أنّ الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب العبادات. واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها، فحدّ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد والمُراءَى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك، والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو: البدن، والزي، والقول، والعمل، والأتباع، والأشياء الخارجة. وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأول- الرياء في الدين بالبدن: وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر. وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس

لمعرفتهم، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة. ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وأنّ وقار الشرع هو الذي خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته. وعن هذا قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينه. وكذلك رُوي عن أبي هريرة، وذلك كله لما يخاف عليه من نزع الشيطان بالرياء؛ ولذلك قال ابن مسعود: أصبحوا صيامًا مدهنين. فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن.

فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمت وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسبها.

الثاني - الرياء بالهيئة والزي: أما الهيئة فتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الشارب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب الساق، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقًا، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين.

والمراءون بالزي على طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا، ولو كلف أن يلبس ثوبًا نظيفًا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له في الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا. وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها، ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الأغنياء ولونه وهيأته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن

أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفًا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء. وكل طبقة منهم رأى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحًا خيفة من المذمة.

وأما أهل الدنيا؛ فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة يشتدّ عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة.

الثالث - الرياء بالقول: ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار، لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهار لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والرد على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أنّ الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين. والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للإعراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

الرابع - الرياء بالعمل: كمراءاة المصلي بطول القيام ومدّ الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس، وترك الالتفات، وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام، وبالإخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى إن المرائي قد

يسرع في المشي إلى حاجته، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفًا من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، ويظن أنه يتخلف به عن الرياء، وقد تضاعف به رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضًا مرائيًا، فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله وحياء منه.

وأما أهل الدنيا؛ فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطأ والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

الخامس - المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين: كالذي يتكلف أن يستزير عالمًا من العلماء ليقال: إن فلانًا قد زار فلانًا، أو عابدًا من العباد ليقال: إنّ أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو ملكًا من الملوك أو عاملًا من عمال السلطان ليقال: إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين. وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقى شيوخًا كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه مباهاة ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانًا وفلانًا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ، وما يجرى مجراه فهذه مجامع ما يرائي به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد، ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة؟ وكم من عابد اعتزل إلى قمة جبل مدة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم، ولكنه يحب مجرد الجاه - فإنه لذيذ

كما ذكرناه في أسبابه - فإنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال، ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد. ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه. ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة، ومنهم من قصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذي يراءون بالأسباب التي ذكرناها، فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ فأقول: فيه تفصيل، فإن الرياء هو طلب الجاه، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال، فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود، فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضًا محمود، وهو الذي طلبه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، كما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه بل أشدّ، وفتنة الجاه أنّه يلهي ويطغي ويُنسي ذكر الله والدار الآخرة، فكذلك كثير الجاه بل أشدّ، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنا لا نقول: تملك المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز. نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها، وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم، فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء

بالعبادة بل بالدنيا، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم. فلو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذرًا من ذمهم ولومهم واستروائحًا إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرًا مباحًا، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان، ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم.

فإذًا المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقدتكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها، ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة، ولكن ليعتقد الناس أنه سخي، فهذا مراءاة وليس بحرام وكذلك أمثاله.

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج، فللمرائي فيه حالتان، إحداهما – أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأنّ الأعمال بالنيات، وهذا ليس بقصد العبادة، ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول: صار كما كن قبل العبادة بل يعصي بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات.

والمعنى في أمران:

أحدهما - يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله، وأنه من أهل الدين وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضًا، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر.

والثاني - يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو كالمستهزئ بالله، ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته: انظروا إليه يستهزئ بي.

ومثاله: أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم، وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك أو غلام من غلمانه، فإنَّ هذا استهزاء بالملك إذ لم

يقصد التقريب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبدًا من عبيده، فأي استحقار يزيدعلى أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضرًا ولا نفعًا؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله؟ وأنه أولى بالتقريب من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته؟ وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات، ولهذا سماه ارسول الله ﷺ الشرك الأصغر.

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض - كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى - ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية لأن المرائي عظم في قلبه الناس، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريبًا من الشرك، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله، فعن هذا كان شركًا خفيًا لا شركًا جليًا، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلامن خدعه الشيطان، وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآلة أكثر مما يملكه الله تعالى، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم، ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة، لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا؟ فكيف في يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا بل تقول الأنبياء فيه نفسي نفسي؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس؟ فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعًا هذا إذا لم يقصد الأجر، فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعًا في صدقته أو صلاته فهو الشرك الأصغر الذي يناقض الإخلاص. وقد ذكرنا حكمه في كتاب

الإخلاص، ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعد بن المسيب وعبادة بن الصامت إنه لا أجر له فيه أصلًا.

بيان درجات الرياء:

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه، وأركانه ثلاثة: المراءى به، والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء.

الركن الأول - نفس قصد الرياء، وهو على درجات أربعة:

الأولى - وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلًا، كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرد قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى، وكذلك من يخرج الصدقة خوفًا من مذمة الناس، وهو لا يقصد الثواب ولو خلا بنفسه لما أداها، فهذه الدرجة العليا من الرياء.

الثانية - أن يكون له قصد الثواب أيضًا، ولكن قصدًا ضعيفًا، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل، فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا ينفي عنه المقت والإثم.

الثالثة - أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليًا الآخر لم يبعثه على العمل، فلما اجتمعا انبعثت الرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فيحتمل أن يسلم رأسًا برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم. [والصحيح أنه لا ثواب له لحديث: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك**» [متفق عليه].

الرابعة - أن يكون اطلاع الناس مرجحًا ومقويًا لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه، فالذي نظنه والعلم عندالله أنه لا يحبط أصل الثواب، ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار الثواب، وأما قوله ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك**»، فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني - المراءى به وهو الطاعات، وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها.

القسم الأول وهو الأغلظ: الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات:

الأولى - الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥]. الآية. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣]، والآيات فيهم كثيرة. وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء الغرض، وذلك مما يقل في زماننا، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنًا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلًا إلى قول الملحدة، أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلًا إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفرًا أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين في النار، وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشد حالًا من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الثانية - الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضًا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير. ومثاله: أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفًا من ذمه، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أوْ يبرّ والديه لا عن رغبة ولكن خوفًا من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك. فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند اطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته من محمدتهم أشدّ من رغبته في ثواب الله، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير خارج عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الثالثة - أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصى، ولكنه يكسل عنه في الخلوة والفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذة الكسل تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب، ثم يبعثه الرياء على فعلها، وذلك كعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت، وكالتهجد بالليل والصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الإثنين والخميس. فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفًا من المذمة أو طلبًا للمحمدة، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض. فهذا أيضًا عظيم ولكنه دون ما قبله، فإن الذي قبله قد آثر حمد الخلق على حمد الخالق. وهذا أيضًا قد فعل ذلك واتقى ذمّ الخلق دون ذم الخالق، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقابًا على ترك النافلة لو تركها، وكأنه على شطر من الأوّل وعقابه نصف عقابه، فهذا هو الرياء بأصول العبادات.

القسم الثاني - الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضًا على ثلاثة درجات:

الأولى - أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين، وقد قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين فيها بربه عَزَّوَجَلَّ؛ أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة، فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة كمن جلس بين يدي إنسان متربعًا أو متكئًا فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديمًا للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة. وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة. وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الردئ، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفًا من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالًا لعبادة الصوم خوفًا من المذمة، فهذا أيضًا من الرياء المحظور لأن فيه تقديمًا للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية؟ فيقال له: هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس، وليس الأمر كذلك، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر، وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه فضلًا وولاية يتقلدها، فيهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفًا من مذمة غلمانه، وذلك محال، بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر.

نعم للمرائي فيه حالتان: إحداهما - أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعًا. والثانية - أن يقول: ليس بحضرتي الإخلاص في تحسين الركوع والسجود، ولو خف كانت صلاتي عندهم ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثوابًا، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة، فهذا فيه أدنى نظر. والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص، فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله، فإن ذلك استهزاء كما سبق.

الدرجة الثانية - أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود، ومدّ القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على السور المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت، وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة. وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه.

الثالثة - أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضًا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجرى مجراه. وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائي به وبعضه أشدّ من بعض. والكل مذموم.

الركن الثالث - المُرَائى لأجله، فإن للمرائي مقصودًا لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، وله أيضًا ثلاث درجات:

الأولى - وهي أشدّها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولي القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم

إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي. وقد يظهر بعضهم زي التصوّف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير، وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلمًا إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجرًا وبضاعة لهم في فسقهم، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتُّهِم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه، فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذي جحد واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال: إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره.

الثانية - أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة، على الجملة، وكالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته. فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الدنيا ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة - أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته خوفًا من أن ينظر إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذي يمشي مستعجلًا فيطلع عليه الناس، فيحسن المشي ويترك العجلة كي لا يقال: إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن، ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير، وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون

فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئًا من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفًا من أن يعلم الناس أنه غير صائم،فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم، وقد لا يصرح بأني صائم ولكن يقول: لي عذر، وهو جمع بين خبيثين، فإنه يُرى أنه صائم ثم يُرى أنّه مخلص ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيًا فيريد أن يقال: إنه ساتر لعبادته، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر على أن يذكر لنفسه فيه عذرًا تصريحًا أو تعريضًا بأن يتعلل بمرض تقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم، أو يقول: أفطرت تطييبًا لقلب فلان، ثم قد لا يذكر متصلًا بشربه كي لا يظن به أن يعتذر رياء ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضًا؛ مثل أن يقول: إن فلانًا محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح اليوم عليَّ ولم أجد بدًا من تطييب قلبه. ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب مشفقة عليَّ تظن أني لو صمت يومًا مرضت فلا تدعني أصوم، فهذا وما يجرى مجراه في آفات الرياء، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن. أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه؟ فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه، فلا يريدأن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبسًا.

بيان أنّ الرياء الخفي هو أخفى من دبيب النمل:

اعلم أن الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه،ولو قصد الثواب وهو أجلاه، وأخفى منه قليلًا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وخف عليه، وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضًا، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف

إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك، ولكن إذا طلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروَّح ذلك على قلبه شدة لعبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكنًا في القلب استكنان النار في الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتًا وغذاء العرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية، فيتقاضى تقاضيًا خفيًا أن يتكلف سببًا عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضًا وإن كان لا يدعو إلى التصريح، وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضًا وتصريحًا، ولكن بالشمائل، كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد، وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لايريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوفير، وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادًا في نفسه كأن يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خاليًا عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون.

وقال عبد الله بن المبارك: رُوي عن وهب بن منبه أنه قال: إن رجلًا من السواح قال لأصحابه: إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي

أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه، وإن اشترى شيئًا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح: ما هذا؟ قيل: هذا الملك قد أظلك، فقال للغلام: ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلًا عنيفًا فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، قال: كيف أنت؟ قال: كالناس، وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك: ما عند هذا من خير؟ فانصرف عنه، فقال السائح: الحمد لله الذي صرفه عني وأنت لي ذام، فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون ولا يجزي والد عن ولده، ويشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد: نفسي نفسي! فضلًا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص لعلمهم أن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والبهرج، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزغ إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجي إلا الخالص من النقد، فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزودونه له من التقوى.

فإذًا شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء، فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا فلو كان مخلصًا قانعًا بعلم الله لاستحقر العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم، وعلم أنّ العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر على البهائم والصبيان والمجانين، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي، ولكن ليس كل شوب محبطًا للأجر مفسدًا للعمل بل فيه تفصيل [قلتُ: ما ذكره الغزالي من تفاصيل ودقائق يستفاد منه عدم جزم

المرء لنفسه بالصدق ولا بالإخلاص أبدًا ولكن النظر في مثل هذه الدقائق لا يخلو في أكثر الأحيان من نظر].

فإن قلت: فما نرى أحدًا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟ فنقول: أولًا، كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم.

فأما المحمود فأربعة أقسام:

الأول - أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به.

الثاني - أن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله ﷺ: «**ما ستر الله على عبد ذنبًا إلا ستره عليه في الآخرة**» [رواه مسلم]، فيكون الأوّل فرحًا بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل، وهذا التفات إلى المستقبل.

الثالث - أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرًا وأجر السر بما قصده أولًا، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإنّ ظهور مخائل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة.

الرابع - أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم بحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة؛ إذا من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله. وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم وهو **الخامس** – فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده.

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط:

فنقول فيه: إذا عقد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إماأن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل، إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالمًا عن الرياء، فما يطرأ بعده فيرجو أن ينعطف عليه أثره، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يتمن إظهاره وذكره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه. نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء، ولكن تحدث به أو أظهره فهذا مخوف.

وفي الآثار والأخبار مايدل على أنه يحبط. فقدروي عن ابن مسعود أنه سمع رجلًا يقول: قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها: وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل قال له: صمت الدهر يا رسول الله، فقال له: «**ما صمت ولا أفطرت**» [رواه مسلم بلفظ: سئل عن صيام الدهر؟ فقال: لا صام ولا أفطر]، فقال بعضهم: إنما قال ذلك لأنه أظهره، قيل: هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر، وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ ومن ابن مسعود استدلالًا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أنه ظهر منه التحدث به، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد

العمل مبطلًا لثواب العمل، بل الأقيس أنّه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة، فإن ذلك قديبطل الصلاة ويحبط العمل. وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلًا وكان قد عقد على الإخلاص، ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياء باعثًا على العمل، فإن كان باعثًا على العمل وختم العبادة به حبط أجره. ومثاله: أن يكون في تطوع فتجددت له نظارة، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه، أو يذكر شيئًا نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفًا من مذمة الناس، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة. وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضًا، فهذا رياء قد أثر في العمل وانتهض باعثًا على الحركات فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورًا، فهذا أيضًا ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، ويحتمل أن يقال: لا يفسد العبادة نظرًا إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه.

والأقيس عندنا: أن هذا القدر لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادرًا عن باعث الدين، وإنما انضاف إليه السرور بالإطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام.

وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويًا لقصد الثواب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفًا بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال، ولا ينبغي أن يفسد الصلاة، ولا يبعد أن يقال: إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه

الله – والخالص ما لا يشوبه شيء – فلا يكون مؤديًا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه. فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ.

القسم الثالث - الذي يقارن حال العقد بأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء، فإن استمر عليه سلم لا خلاف في أنه يقضي ولا يعتد بصلاته، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه:

قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف.

وقالت فرقة: تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود، وتفسد أفعاله دون تحريمه الصلاة لأن التحريم عقد، والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدًا.

وقالت فرقة: لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله.

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة، فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل، فقالوا: إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرًا، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته. ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدًا خصوصًا من قال: يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعلًا زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة. وكذلك قول من يقول: لو ختم بالإخلاص صح نظرًا إلى الآخر فهو أيضًا ضعيف، لأن الرياء يقدح في النية وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الافتتاح، فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال: إن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل، ولما رأى الناس تحرم بالصلاة صلّى وكان بحيث لو كان ثوبه نجسًا أيضًا كان يصلي لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية

فيها، إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين، وها هنا لا باعث ولا إجابة، فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضًا لكان يصلي إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضًا فاجتمع الباعثان، فهذا إما أن تكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر، وإن كان في صلاةٍ تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إماأن تكون فرضًا أو نفلًا، فإن كانت نفلًا فحكمها أيضًا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه آخر، إذ اجتمع في قلبه الباعثان، ولا يمكن أن يقال: صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى أنّ من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به، فإن المصير إلى هذا بعيد جدًا بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضًا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته، ويصح الاقتداء به، وإن اقترن به قصدآخر وهو به عاص، فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لايستقل، وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما، فهذا لا يسقط الواجب عنه، لأن الإيجاب لم ينتهض باعثًا في حقه بمجرده واستقلاله، وإن كان كل باعث مستقلًا حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعًا لأجل الرياء فهذا محل النظر، وهو محتمل جدًا، فيحتمل أن يقال: إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص، ويحتمل أن يقال: الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه، كما لو صلى في دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصيًا بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه، وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة، أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلًا دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة في أوّل الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخّر إلى وسط الوقت،

ولـولا الفرض لكان لايبتدئ صلاة لأجل الرياء، فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسـقوط الفـرض به، لأن باعث أصـل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره، بل من حيث تعيـين الوقـت، فهذا أبعد من القدح في النية، هذا في رياء يكون باعثًا على العمل وحاملًا عليه، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة. فهذا ما نراه لائقًا بقانون الفقه، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخـلاص على إفسـاد العبادات بأقل الخواطـر وما ذكرناه هو الأقصد فيـما نراه والعلم عند الله عَزَّوَجَلَّ فيه، وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه:

قد عرفت مما سـبق أن الرياء محبط للأعمال وسـبب للمقت عند الله تعالى، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشـمير عن سـاق الجد في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشـاق، فلا شـفاء إلا في شرب الأدوية المرة البشـعة، وهذه مجاهدة يضطر إليها العبـاد كلهـم، إذ الصبي يخلق ضعيف العقـل والتمييز ممتد العـين إلى الخلق كثير الطمع فيهم؛ فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة، ويرسخ ذلك في نفسه، وإنما يشعر بكونه مهلكًا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه وترسخ فيه، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات، فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولًا وتخف آخرًا وفي علاجه مقامان:

أحدهما - قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني - دفع ما يخطر منه في الحال.

المقـام الأول - في قلع عروقه واسـتئصال أصوله: وأصله حـب المنزلة والجاه، وإذا فُصِّـل رجـع إلى ثلاثة أصول وهي لذة المحمـدة، والفرار من ألم الـذم، والطمع فيما عند

أيدي الناس. ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى أن أعرابيًا سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية - ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنّه مقهور مغلوب - قال: والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب - والرجل يقاتل للذكر - وها هو الحمد باللسان - فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» [متفق عليه]، وقال ابن مسعود: إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم؛ فلان يقاتل لذكر وفلان يقاتل لملك، والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا. وقال عمر رضي الله عنه: «من غزا لا يبغي إلا عقالًا فله ما نوى» [رواه النسائي، وصححه الألباني]، فهذا إشارة إلى الطمع. وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه، ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره، وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفًا من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال. ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد. وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل، ويفتي بغير علم ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل، كل ذلك حذرًا من الذم. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة.

ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سمًا أعرض عنه؛ فكذلك طريق هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة. ومهما

عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما تتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر، حيث ينادي على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله تحببت إلى العباد بالتبغيض إلى الله، وتزينت لهم بالشين عند الله، وتقربت إليهم بالبعد من الله، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله، وطلبت ورضاهم بالتعرض لسخط الله، أما كان أحد بأهون عليك من الله! فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط من ثواب الأعمال، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوي إلى النار، فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيًا في معرفة ضرره، وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين، وقد حطَّ عنهم بسبب الرياء، رد إلى صف النعال من مراتب الأولياء، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإنَّ رضا الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه، وأسخطهم أيضًا عليه ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم؟ ولا يزيده حمدهم رزقًا ولا أجلًا ولاينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة، وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أنّ الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته؟ وأما ذمهم فلِمَ يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئًا ما لم يكتبه عليه الله، ولا يعجل أجله ولايؤخر رزقه، لا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودًا عند الله، ولا يزيده مقتًا إن كان

ممقوتًا عند الله، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياة ولانشورًا، فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله، ولو أخلص لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين! فقال له رسول الله ﷺ: «**كذبت؛ ذاك الله الذي لا إله إلا هو**» [أخرجه الترمذي وحسنه الألباني]، إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه، فأي خير لك في مدح الناس، وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار؟ وأي شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص، فهذا وما قدمنا في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله أو اطلاعه على عبادته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا الزهد فيها، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء،

وذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد، و: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرَّعْد: ١١]، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٠]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٤٠].

المقام الثاني - في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لابد من تعلمه أيضًا، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط المنزلة من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزعاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية، فلابد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة – قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج – فالأول – العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم، ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه، وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأوّل وردّه قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال: مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرّضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله، فكما أنّ معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء، فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة إذ يتفكر في تعرّضه لمقت الله وعقابه الأليم، والشهوة تدعوه إلى القبول، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما.

فإذًا لابد في رد الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة والإباء. وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان منطويًا عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد

واستيلاء الحرص عليه، بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته، إذ لم يبق موضع خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم، وهو كالذي يحدّث نفسه بالحلم وذم الغضب، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب، ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظًا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون، إذ ينسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان، ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة. وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له في خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله، ولكن يستمر عليه لشدّة شهوته، فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال، فيسوّف بالتوبة أويتشاغل عن التفكر في ذلك لشدّة الشهوة، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك، ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكد؟ إذ قبل داعي الرياء مع علمه وكونه مذمومًا عند الله، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة. وقد تحضر المعرفة والكراهة، ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة، وهذا أيضًا لا ينتفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذًا لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث: وهي المعرفة، والكراهة، والإباء. فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة، وبعض ذلك ينتج بعضًا ويثمره، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوة فهو رأس كل خطيئة، ومنبع كل ذنب، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلم.

فإن قلت: فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير محب له، فهل يكون في زمرة المرائين؟ فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب، وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به. ويدل على ذلك من الأخبار ما روي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها، فقال ﷺ: «**أوقد وجدتموه**» قالوا: نعم، قال: «**ذلك صريح الإيمان**» [رواه مسلم]، ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له، ولا يمكن أن يقال: أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة، والرياء وإن كان عظيمًا فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، وكذلك يروى عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أنه قال: «**الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة**» [رواه أبو داود وصححه الألباني]، وقال أبو حازم: ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه. فإذًا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل، إلا أنّ للشيطان هاهنا مكيدة وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله، فيوجب ذلك نقصانًا في منزلته عند الله.

والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب:

الأولى - أن يرده على الشيطان فيكذبه، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه، وهو على التحقيق نقصان، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك.

الثانية - أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه، ولا يشتغل بمجادلته.

الثالثة - أن لا يشتغل بتكذيبه أيضًا لأن ذلك وقفة وإن قلّت؛ بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء، وكذب الشيطان، فيستمر على ما كان عليه مستصحبًا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة.

الرابعة - أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظًا للشيطان، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع. يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: إن فلانًا يذكرك، فقال: والله لأغيظن من أمره، قيل: ومن أمره؟ قال: الشيطان، اللهم اغفر له، أي لأغيظنه بأن أطيع الله فيه، ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته وقال إبراهيم التيمي: إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم، فلا يطعه وليحدث عنه ذلك خيرًا، فإذا رآه كذلك تركه. وقال أيضًا: إذا رآك الشيطان مترددًا طمع فيك، وإذا رآك مداومًا ملّك وقلاك.

وضرب الحارس المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الأربعة مثالًا أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة قصدوا مجلسًا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلًا وهداية ورشدًا، فحسدهم على

ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن في ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره، فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه، فوقف فدفع، في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه، ومرَّ به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله، بل استمر على ما كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية، فمر الرابع فلم يتوقف له، وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير، فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله.

فإن قلت: فإذاكان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظارًا لوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟ قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه.

فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم - كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمر والزنا - فصارت ملاذ الدنيا عندهم - وإن كانت مباحة - كالخمر والخنزير، فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر.

وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون له إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر.

وقالت فرقة من أهل العلم: لابد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية، فهو وسيلة

الشيطان ويكاد يكون غرورًا، إذ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا، بل في صفات الله تعالى وأسمائه، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحد من الخطر فيه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه ليغان على قلبي**»، مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير، فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهو مغرور ولم يؤمنهم من كيد الشيطان، ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ [طه: ١١٨]، ومع أنه لم يُنه إلا عن شجرة واحدة وأُطلق له وراء ذلك ما أراد، فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع المحن والفتن معدن الملاذ والشهوات المنهي عنها؟ وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما أخبر عنه تعالى: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، ولذلك حذر الله منه جميع الخلق، فقال اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٧]، والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله، فإنّ من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تَعَالَى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو والكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى. ولذلك قال ابن محيريز: صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك، فأشار إلى الشيطان، فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة، وفي إهمال الحذر

من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله. وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ، فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر منه؟ وقد ذكرنا في كتاب «التوكل» ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، لا يناقض امتثال التوكل، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله تعالى، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله، ويرى الأسباب وسائط مسخرة - كما ذكرناه في التوكل.

وهذا ما اختاره المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذي لم يغزر علمهم، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الاوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد.

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم: إذا حذّرنا الله تعالى العدو فلاينبغي أن يكون شيء أغلب في قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له، فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا. وقال قوم: إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين، فإنا إن نسينا ربما عرض من حيث لا نحتسب، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله، فالجمع أولى. وقال العلماء المحققون: غلط الفريقان؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله فلا يخفى غلطه، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه، فلم يأمرنا

بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره، وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله وذكر الشيطان، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله، وقدأمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه - إبليس وغيره - فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل همة ولا يخطر بباله أمر الشيطان، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له، وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان، بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح؛ فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر، ومع أنه بالنوم غافل عنه، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات،فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله، ودفعوا بالذكرشر العدو، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو. فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي. فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب، ولكنه تركه جاريًا إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر، والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدًا وملأها بالماء الصافي، فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء. قال الحسن: قد علم المسلمون

أن السر أحرز العملين، ولكن في الإظهار أيضًا فائدة، ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

[البقرة: ٢٧١]

والإظهار قسمان:

أحدهما - في نفس العمل.

والآخر - التحدث بما عمل.

القسم الأول - إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها، كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه، فقال النبي ﷺ: «**من سنة سنة حسنة فعُمِل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه**» [رواه مسلم]، وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها، ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب. نعم الغازي إذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضًا لهم على الحركة، فذلك أفضل له لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لايمكن إسراره، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد، ووكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاةبالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به، فكل عمل لايمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة، فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة، فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام. فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم: السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة، وقال قوم: السر أفضل من علانية لا قدوة فيها، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر. ويدل على ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر الأنبياء بإظهار العمل للإقتداء وخصهم بمنصب النبوة، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين. ويدل عليه قوله ﷺ: «**فله أجرها وأجر من عمل بها**» [رواه مسلم]. وقد روي

في الحديث: «**إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفًا ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفًا**» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان» ولكنه ضعيف]، وهذا لا وجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين، ما يقتدى به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به، فلا خلاف في أن السر أفضل منه، ولكن على من يظهر العمل وظيفتان:

إحداهما - أن يظهره حيث يعلم أن يقتدى به أويظن ذلك ظنًا، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلته، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة. فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به.

والثانية - أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك، والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت أنّ الهلاك بالرياء مثله، لابل عذابه دائم مدة مديدة، وهذه منزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء، والتفطن لذلك غامض، ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له: أخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير، فإنهم قد

رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم؟ فليحذر العبد خدع النفس، فإنّ النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئًا والسلامة في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

القسم الثاني - أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة، وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها،فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أن من قوي قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز، بل هو مندوب إليه أن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات، لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء. قال سعد بن معاذ: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها، ولا تبعث جنازة فحدثتُ نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها، وما سمعت النبي ﷺ يقول قولًا قط إلا علمت أنه حق. وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأني لا أدري أيهما خير لي؟ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها. وقال عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ ، وقال شداد بن أوس رضي الله عنه: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها، غير هذه! وكان قد قال لغلامه: ائتنا بالسفرة لنعبث بها حتى ندرك الغداء. وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا عليَّ فإني ما أحدثت ذنبًا منذ أسلمت. وقال عمر بن عبد

العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما قضى الله فيَّ بقضاء قط فسرني أن يكون قضي لي بغيره، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله.

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يرائى بها، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به. فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء، بل إظهار المرائي للعبادة إذ يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي. فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله؟ وقد روي أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت فصنف بعضهم كتابًا في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس رغبة في الإخلاص، فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنف! فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه، «**وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**» [متفق عليه]، كما ورد في الأخبار والله تعالى أعلم.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له:

اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لرجل: عليك بعمل العلانية، قال: يا أمير المؤمنين، وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه. وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملًا أبالي أن أن يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط، إلا أن هذه درجة عظيمة لاينالها كل واحد. ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لاسيما ما تختلج به الخواطر وفي الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك، فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك، بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك، فهذا هو ستر المرائي.

وأما الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه:

الأول - أن يفرح بستر الله عليه، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة، إذ ورد في الخبر: «**أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنبًا ستره الله عليه في الآخرة**»، وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان.

الثاني - أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال النبي ﷺ: «**من ارتكب شيئًا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله**» [رواه مالك وصححه الألباني]، فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله، وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضًا ويغتم بسببه.

الثالث - أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة، وبهذه العلة أيضًا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر. وهذا أيضًا من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان.

الرابع - أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص، وإنما يعصي إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذرًا من ذمهم، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به، نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عند ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو الله، وأن العباد كلهم عاجزون؛ وذلك قليل جدًا، وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان، ورُبَّ تألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء

الله، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا يغتم به؟ نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع، كأنه يحب أن يحمد بالورع، ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابًا من غيره، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد.

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذرًا من ذلك، ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم. وإنما مراده أن يتركه الناس حمدًا وذمًا، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم؟ إذ الحمد يطلب اللذة، وعدم اللذة لا يؤلم، وأما الذم فإنه مؤلم؛ فحب الحمد على الطاعة محب طلب ثواب على الطاعة في الحال، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان في الدين، بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر.

الخامس - أن يكره الذم من حيث أنّ الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضًا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع.

السادس - أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم، فإن الذم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته، وإن كان ممن يؤمن شره، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب، فله أن يستر ذلك حذرًا منه.

السابع - مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه، وهو وصف محمود إذ قال رسول الله ﷺ: «**الحياء خير كله**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**» [متفق عليه]، وقال ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**» [متفق عليه]، فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس جمع إلى

الفسق والتهتك والوقاحة، فَقْدَ الحياء، فهو أشد حالًا ممن يستتر ويستحيي، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباهًا عظيمًا قلَّ من يفطن له، ويدعي كل مراء أنه مستحيي، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس، وذلك كذب، بل الحياء خلق ينبعث، من الطبع الكريم وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الإخلاص، ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائي معه.

وبيانه: أن الرجل يطلب من صديق له قرضًا ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحي من رده، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب، فله عندذلك أحوال؛ أحدهما - أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي أن ينسب إلى قلة الحياء، وهذا فعل من لا حياء له. فإن المستحي إما أن يتعلل أن يقرض.

فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال:

أحدهما - أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول: ينبغي أن تعطي حتى يثنى عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء، أو ينبغي أن تعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل، فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء، وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء.

الثاني - أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء، فيهيج داعي الإخلاص ويقول له: إنّ الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة، ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق، وذلك محمود عند الله تعالى، فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه.

الثالث - أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده، ولوجاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان

يـرده وإن كثر الحمد والثواب فيه، فهذا مجـرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب. والمرائي يسـتحي من المباحات أيضًا، حتى أنه يرى مستعجلًا في المشي فيعود إلى الهدوء، أو ضاحكًا فيرجع إلى الانقباض، ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء. وقـد قيل: إن بعض الحيـاء ضعف وهو صحيح، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء مـن وعـظ الناس وإمامة الناس في الصلاة، وهو في الصبيان والنسـاء محمود وفي العقلاء غير محمود. وقد تشـاهد معصية من شـيخ فتسـتحي من شـيبته أن تنكر عليه متعللًا بأن من إجلال الله إجلال ذي الشـيبة المسـلم، أن يستحي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقـوي يؤثـر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيـف قد لا يقدر عليه، فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب.

الثامن ـ أن يخاف من ظهور ذنبه أن يسـتجرئ عليه غيره ويقتدي به، وهذه العلة الواحـدة فقـط هي الجارية في إظهـار الطاعة وهو القدوة، ويختص ذلـك بالأئمة أو بمن يقتدي به، وبهذه العلة ينبغي أيضًا أن يخفي المعاصي أيضًا معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه.

ففي ستر الذنوب: هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه وَرِع كان مرائيًا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة.

فإن قلت: فهل يجوز للعبدأن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه، وقد قـال رجل للنبي ﷺ: دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس، قال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وانبذ إليهم هذا الحطام يحبوك**» [حسـنه الألباني بلفظ: «**وازهد في الدنيا يحبـك الناس**»]، فنقـول: حبك لحب الناس لك قد يكون مباحًـا وقد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا. فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك، فإنه تعالى إذا أحب عبدًا حببـه في قلـوب عبـاده. والمذموم أن تحب حبهـم وحمده على حجك وغـزوك وصلاتك

وعلى طاعة بعينها، فإن ذلك أطلب عوض على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ عاجل سوى ثواب الله. والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة؛ فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

بيان ترك الطاعات خوفًا من الرياء ودخول الآفات:

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفًا من أن يكون مرائيًا به وذلك غلط وموافقة للشيطان، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره، وهو أن الطاعات تنقسم إلى: ما لا لذة في عينه؛ كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عند اطلاع الناس عليه. وإلى: ما هو لذيذ؛ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة.

القسم الأول - الطاعات اللازمة للبدن - التي لاتتعلق بالغير ولا لذة في عينها - كالصوم والصلاة والحج، فخطرات الرياء فيها ثلاث:

إحداها - ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لاطاعة فيه، فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها: ألا تستحين من مولاك ولا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عباده؟ حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفار له فليشتغل بالعمل.

الثانية - أن ينبعث لأجل الله، ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأوّلها، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثًا دينيًا،فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع

الرياء وتحسين الإخلاص بالمعالجات التي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول.

الثالثة - أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهرًا حتى يتمم العمل، لأن الشيطان يدعوك أولًا إلى ترك العمل، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء، فإذا لم تُجِب ودفعت بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا ترتكته فقد حصلت غرضه. ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيًا كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال: خلِّصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصًا صافيًا نقيًا، فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل، فلا معنى له. ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفًا على الناس أن يقولوا: إنه مراء فيعصون الله به. فهذا من مكائد الشيطان لأنه أولًا أساء الظن بالمسلمين، وماكان من حقه أن يظن بهم ذلك، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة، وترك العمل خوفًا من قولهم: إنه مراء هو عين الرياء، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فما له ولقولهم قالوا: إنه مراء، أو قالوا: إنه مراء، وبين أن يحسن العمل خوفًا من أن يقال: إنه غافل مقصر؟ بل ترك العمل أشد من ذلك. فهذه كلها مكائد الشيطان على العباد الجهال، ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخيله بل يقول له: الآن يقول الناس: إنك تركت العمل ليقال: إنه مخلص لا يشتهي الشهرة، فيضطرك بذلك إلى أن تهرب، فإن هربت ودخلت سربًا تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه؟ بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا ليلزم الكراهة والإباء قلبك، وتستمر مع

ذلك على العمل ولا تبالي، وإن نزغ العدو نازغ الطبع فإن ذلك لا ينقطع، وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات. فما دمت تجد باعثًا دينيًا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياءً من ربك وعقوبةً لنفسك فافعل. فإن قال لك الشيطان: أنت مراء، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفًا ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء، فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد، فمن شرع في العمل لله فلابد أني بقى معه أصل قصد الثواب.

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة. روي: أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة. وقال إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت، وإذا أعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن: إن كان أحدهم ليمر بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة. وقد ورد في ذلك آثار كثيرة قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه.

وبالجملة: ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل. والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء، فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف، فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء. وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته، فرأى أن لا يراه

في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك. وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء. وأما قول التيمي: إذ أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها، فإن ذلك يورث العجب. وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذرًا من العجب. فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه، على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني، وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة وربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق، وإنما ذكره تخويفًا للناس من آفة الشهرة وزجرًا عن طلبها.

القسم الثاني- ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال.

أما الخلافة والإمارة: فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص، وقد قال النبي ﷺ: «**ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عامًا**» [أخرجه الطبراني وضعفه الألباني]، فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة، وقال ﷺ: «**أول من يدخل الجنة ثلاثة: الإمام المقسط**» [رواه مسلم بلفظ: أهل الجنة ثلاثة .. إمام مقسط]، أحدهم. وقال ﷺ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم... الإمام العادل**» [السلسلة الصحيحة: ١٢١١، بلفظ: المقسط]، أحدهم. وقال ﷺ: «**أقرب الناس مني مجلسًا يوم القيامة إمام عادل**» [رواه الأصبهاني، وضعفه الحافظ العراقي]. فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها، وذلك لما فيه من عظم الخطر، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة

ويغلب النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا؛ فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعيًا في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقًا، ويقدم عليها يزيد في مكانته وإن كان باطلًا، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرًا من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه. ولهذا الخطر العظيم كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: من يأخذها بما فيها، وكيف لا وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من والي عشرة إلاجاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره**» [رواه أحمد وقال العراقي: بعض رواية قد تُكلِّم فيه]، وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها**» [متفق عليه]، وقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرافع: لا تأمَّر على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع: ألم تقل لي: لا تأمَّر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: بلى، وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله، يعني لعنة الله. ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الإمارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضًا وليس كذلك، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، وأعنى بالقوى الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم، فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة، ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات، ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل، فيداهن خيفة من العزل، فهذا قد اختلف العلماء في أنّه هل يلزمه الهرب من تقلّد الولاية، فقال قائلون: لا يجب لأن هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه

إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير، فلو وعدت بالخير جزمًا لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية، فكيف إذا أظهرت التردد؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع، فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال، فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهرًا، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو إمارة الشر، ولذلك قال ﷺ: «**إنا لا نولي أمرنا من سألنا**» [متفق عليه]، فإذا فهمتَ اختلاف حكم القوي والضعيف علمتَ أنّ نهي أبي بكر رافعًا عن الولاية ثم تقليدها لها ليس بمتناقِض.

وأما القضاء: فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناهما، فإن كل ذي ولاية أمير – أي له أمر نافذ – والإمارة محبوبة بالطبع، والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق، والعقاب فيه أيضًا عظيم مع العدول عن الحق، وقد قال النبي ﷺ: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة**» [صحيح الجامع برقم: [٤٤٤٦]]، وقال ﷺ: «**من استقضى فقد ذبح بغير سكين**» [انظر: صحيح الجامع برقم [٢٦١٩٠]]، فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل مَنْ للدنيا ولذاتها وزن في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم. ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم. إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذرًا مرخصًا له في الإهمال أصلًا، بل إذا عُزل سقطت العهدة عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذًا يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه ثوابًا؟

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية، وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر؛ فآفته أيضًا عظيمة مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلًا، وكانوا يقولون: حدّثنا باب من أبواب الدنيا، ومن قال: حدثنا، فقد قال: أوسعوا لي. والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلًا، ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقًا، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يُحرِّك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثًا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولًا، ثم يقول: إذا أنعم الله عليَّ بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون. فهذا أيضًا مما يعظم فيه الخوف والفتنة، فحكمه حكم الولايات، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر، فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه، إلى أن ترتاض نفسه وتقوى في الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه.

فإن قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق؟ فنقول: قد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الإمارة وتوعد عليها، حتى قال: «**إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها**» [رواه البخاري]، وقال: «**نعمت المرضعة وبئست الفاطمة**» [رواه البخاري]، ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعًا، وثار القتال بين الخلق، وزال الأمن، وخربت البلاد، وتعطلت المعايش فلِمَ نهى عنها مع ذلك؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب - لما رأي قومًا يتبعونه - وهو في ذلك يقول: أُبيّ سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن، فمنع من أن يتبعوه وقال: ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع، وعمر

كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه، واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال: أتمنعني من نصح الناس؟ فقال: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق، والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى، وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما، فأما قول القائل: نَهْيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط، إذ نهى رسول الله ﷺ عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء، بل الرئاسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها، وكذلك حب الرئاسة لا يترك العلوم تندرس، بل لو حُبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرئاسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها. وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس، فإنّ الله لا يضيعهم وانظر لنفسك، ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلًا فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم، وإلّا فليُعلَم أنّ كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرئاسة، فإن لم يكن في البلد إلا واحد كان وعظه نافعًا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سَمْته في الظاهر وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه، وأنه تارك للدنيا ومُعرِض عنها فلا نمنعه منه ونقول له: اشتغل وجاهد نفسك، فإن قال: لست أقدر على نفسي فنقول: اشتغل وجاهد، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده، فنجعله فداء للقوم ونقول: لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم**»، ثم الواعظ هو الذي يُرغِّب في الآخرة ويُزهِّد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته، فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف المسلمين، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان، وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل يُبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد

غيره، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله.

ولهذا قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا علماء السوء، تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون، وتدرِّسون ما لا تعملون، فيا سوء ما تحكمون تنوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة، كذلك أنتم تُخرِجون الحِكَم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم، يا عبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم، بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأيُّ ناس أخس منكم لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين، وتقيمون في مَحِلّة المتجبرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم. مهلًا مهلًا! ويلكم ماذا يُغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة مُعطَّلة! يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتقليكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديَّان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم. وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلّوا الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشين، وفي الآخرة هم الخاسرون.

فإن قلتَ: فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة، حتى قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأن يهدي الله بك رجلًا خير لك من الدنيا وما فيها**» [متفق

عليه]، وقال ﷺ: «**أيما داعٍ دعا إلى هدى واتُبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه**» [روى مسلم بمعناه]، إلى غير ذلك من فضائل العلم، فينبغي أن يُقال للعالِم: اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة: لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك؟؟

فاعلم أن فضل العمل كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة، ولا نقول لأحد من عباد الله: اترك العلم، إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما الآفة في إظهاره بالتصدّي للوعظ والتدريس ورواية الحديث، ولا نقول له أيضًا: ما دام يجد في نفسه باعثًا دينيًا ممزوجًا بباعث الرياء، أما إذا لم يُحرّكه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم، وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها، أما إذا خطر له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره، فلا يترك الصلاة، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدّي للمناصب الكبيرة في العلم.

وبالجملة فالمراتب ثلاث:

الأولى - الولايات؛ والآفات فيها عظيمة، وقد تركها جماعة من السلف خوفًا من الآفة.

الثانية - الصوم والصلاة والحج والغزو؛ وقد تَعرَّض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة. وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة.

الثالثة - وهي متوسطة بين الرتبتين؛ وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأسًا دون الأقوياء، ومناصب العلم بينهما، ومن جرب آفات منصب

العلم علم أنه بالولاة أشبه،وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم. [قلتُ: محل ذلك - كما تقدّم من كلامه - إذا وجد غيره ممن يصلح]

وهاهنا رتبة **رابعة** - جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين، فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلابًا للثناء، وفي إدخال السرور في قلوب الناس لذة للنفس، والآفات فيها أيضًا كثيرة.

ولذلك سُئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك، وآخر طلب فوق قوته ثم تَصدَّق به فقال: القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا، وأن مِن الزهد تركها قُربة إلى الله تعالى. وقال أبو الدرداء: ما يسرني أنني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارًا أتصدق بها، أما إني لا أحرم البيع والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وقد اختلف العلماء فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وسَلِمَ منها وتَصدَّق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل. وقال قوم: الجلوس في دوام ذكر الله أفضل، والأخذ والعطاء يشغل عن الله، وقد قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا طالب الدنيا ليبرَّ بها، تركك لها أَبرّ»، وقال: «أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل، وهذا فيمن سلم من الآفات، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل». [قلتُ: الأفضل ما يصلح القلب معه، وكم من عبد يصلح قلبه بالحج والعمرة والإنفاق والصدقة، وذلك لا يمكن بغير مال].

وبالجملة: ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه، وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع.

وبالجملة: ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه، لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل إليه، وإن كان لا يبعد ذلك أيضًا في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي أو إثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل، ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلًا عن الصدقات أفضل من إمساكه، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب: أن الأفضل ترك الكسب والإنفاق، أو التجرد للذكر، وذلك لما في الكسب من الآفات، فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال.

فإن قلتَ: فبأي علامة يعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مريد رياء الناس؟ فاعلم أن لذلك علامات:

إحداها - أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظًا و أغزر منه علمًا والناس له أشد قبولًا فرح به ولم يحسده، نعم لا بأس بالغبطة وهوأن يتمنى لنفسه مثل علمه.

والأخرى - أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه، بل بقي كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعين واحدة.

والأخرى - أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق، ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها.

وقد روي عن سعيد بن أبي مروان قال: «كنت جالسًا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر، فدخل المسجد على برذونه، فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن، فتوجه نحوها حتى بلغ قريبًا منها، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن، فلما رآه الحسن متوجهًا إليه تجافى له عن ناحية مجلسه، قال سعيد: وتجافيتُ له أيضًا عن ناحية

مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له - يتكلم به في كل يوم - فما قطع الحسن كلامه قال: سعيد: لأبلون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه، أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه؟ فتكلم الحسن كلامًا واحدًا نحوًا مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حِلَقًا وعادة فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ: «أن مجالس الذكر رياض الجنة» [صح بلفظ: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر]، ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها، قال: ثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته، فلما فرغ طَفِق فقام، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن - حين قام الحجاج - قال: عباد الله المسلمين ألاتعجبون أني رجل شيخ كبير، وأني أغزو فأكلف فرسًا وبغلًا، وأكلف فسطاطًا، وأن لي ثلاثمائة درهم من العطاء وأن لي سبع بنات من العيال؟ فشكا من حاله حتى رَقَّ قلبُ الحسن له ولأصحابه،والحسن مُكب، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولًا ومال الله دولًا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم، فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة العالية وعلى البغال السبّاقة، وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويًا راجلًا؟ فمافتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده، فقام رجل من أهل الشام كان جالسًا إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا: أجب الأمير، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يبتسم، وقلّما رأيته فاغرًا فاه يضحك إنما كان يتبسَّم، فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظّم الأمانة وقال: إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم، إن الخيانة أشدّ الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن

إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار! إني أتيت هذا الرجل فقال: أقصر عليك من لسانك، وقولك إذا غزا عدو كذا وكذا، وإذا أغزى أخاه كذا كذا لا أبالك. تحرِّض علينا الناس. أما إنك على ذلك لا نتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك، قال: فدفعه الله عني.

وركب الحسن حمارًا يريد المنزل فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قومًا يتبعونه فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء وإلا فارجعوا فما يُبقي هذا من قلب العبد؟ فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن. ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون، اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين.

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح:

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلًا، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير، أو تمكنه من التمتع بزوجته، أو المحادثة مع أهله وأقاربه، أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه، فإذا وقع في منزلٍ غريبٍ اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر رغبته عن الخير وحصلت له

أسباب باعثه على الخير، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام، والنفس لا تسمح بالتهجد دائمًا وتسمح بالتهجد وقتًا قليلًا فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق، وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سَلِمَ منها قوي الباعث، فهذا وأمثاله من الأسباب يُتصوّر وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول: لا تعمل فإنك تكون مرائيًا إذا كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة، وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفًا من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته، وعند ذلك قد يقول الشيطان: صل، فإنك مخلص ولست تصلي لأجلهم بل لله، وإنما كنت لا تصلِّي كلَّ ليلة لكثرة العوائق، وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم. هذا أمر مشتبه إلا على ذوي البصائر، فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة، لأنه يعصي الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق.

وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كان نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن سخت نفسه فليصل فإن باعثه الحق، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك، فإن باعثه الرياء، وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع

من نشاط إلى الصلاة ما لا يحضره كل يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى، وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد، فمهما علم أنّ الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل لما يجده من حب الحمد، بل ينبغي أن يردّ ذلك على نفسه بالكراهية ويشتغل بالعبادة. وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفًا من الله تعالى لا من الرياء، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب، وقد لا يحضره البكاء فيتباكى - تارة رياء وتارة مع الصدق - إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفًا، وذلك محمود. وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال: إنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي.

قال لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: «لا ترى أنك تخشى ليكرموك وقلبك فاجر، وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال، تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليُعرف بذلك، فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرَّض لسخط الله تعالى به، وقد يكون أصل الأنين عن الحزن، ولكن يمده ويزيده في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء، وهو محظور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء، فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل

الرياء. وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط، ثم يستحي أن يقال له: إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة، فيزعق ويتواجد تكلفًا ليُري أنه سقط لكونه مغشيًا عليه، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعًا فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة، وإنما هي كبرق خاطف، فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعًا فيجزع أن يقال: لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه، فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكئ على غيره يُري أنه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي. فهذه كلها مكائد الشيطان ونزغات النفس، فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتًا، كما روى عن ذي النون رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قام وزعق، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال: يا شيخ! الذي يراك حين تقوم؟ فجلس الشيخ. وكل ذلك من أعمال المنافقين.

وقد جاء الخبر: «**تعوذوا بالله من خشوع النفاق**» [رواه البيهقي وسنده ضعيف]، وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع [قلت: الصعق والغشي والسقوط لسماع الذكر لا كمال فيه حتى يُطلَب]، ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكُّر ذنب وتندُّم عليه وقد يكون للمراءاة. فهذه خواطر تَرِد على القلب متضادة مترادفة متقاربة، وهي مع تقاربها متشابهة، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو؟ فإن كان لله فأمضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص، فإن ذلك مما يكثر جدًا، فإذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقته لك. وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذي حاجوا أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ

قال: يا أيوب، أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسه ويُجزَى بسريرته. وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أني أخشاك وأنت لي ماقت. وكان من دعاء عليّ بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي، محافظًا على رياء الناس من نفسي مضيعًا لما أنت مطلع عليه مني، أبدي للناس أحسن أمري وأفضي إليك بأسوء عملي، تقربًا إلى الناس بحسناتي وفرارًا منهم إليك بسيئاتي، فيحل بي مقتك ويجب عليَّ غضبك، أعذني من ذلك يا رب العالمين، وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا أيوب، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم؟ فهذه جمل آفات الرياء. فليراقب العبد قلبه ليقف عليها، وقد عرفتَ أنّ بعض الرياء أعمض من بعض، حتى إن بعضه مثل دبيب النمل، وبعضه أخفى من دبيب النمل، وكيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود، فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقدٍ القلب وامتحانٍ للنفس وتفتيشٍ عن خدعها؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه.

بيان ما ينبغي للمريد أن يُلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه:

اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجوا إلا الله، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرّض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصًا على الإفشاء وتقول: مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك! فما في الخلق مَنْ يقدر على مثله، فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت

قدمه، ويتذكر في مقابلة عِظم عمله: عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابًا من عباده، ويعلم أنّ إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط للعمل العظيم فيقول: وكيف أتبع هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزق ولا أجل؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم، فيترك المجاهدة في الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقي.

فإذًا ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به، وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلًا من عمله خائفًا أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فيكون شاكًا في قبوله ورده مجوزًا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورَدَّ عمله بسببها، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده إلا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن يكون متيقنًا في الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله.

والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعَم عليه، فإن ذلك يحبط الأجر. فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه، أو ترددًا منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره. نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته، فزجو أن لا يحبط ذلك أجره إذ كان لا ينتظره ولا يريده منه، ولا يستبعده منه لو قطعه. ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا، حتى إن بعضهم وقع في بئر فجاء قوم فأدلوا حبلًا ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثًا، خيفة أن يحبط أجره.

وقال شقيق البلخي: أهديت لسفيان الثوري ثوبًا فرده عليَّ، فقلت له: يا أبا عبد الله، لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده عليَّ قال: علمت ذاك، ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره.

وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقًا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرًا، فقال له: يا أبا عبد الله، في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك - كان وكان وأثنى عليه - فقال: يا أبا عبد الله، قد عرفتَ كيف صار هذا المال إليَّ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك. قال: فقبل سفيان ذلك. قال: فلما خرج قال لأخيه: يا مبارك الحقه فرده عليَّ، فرجع فقال: أحب أن تأخذ مالك، فلم يزل به حتى رده عليه، وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك. قال أخوه: فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت: ويلك أي شيء قلبك هذا! حجارة؟ عُدَّ أنه ليس لك عيال! أما ترحمني؟ أما ترحم إخوتك؟ أما ترحم عيالنا؟ فأكثرتُ عليه فقال لي: يا مبارك، تأكلها أنت هنيئًا مريئًا وأُسئل عنه أنا.

فإذًا يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده، لا عند المعلم وعند الخلق. وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبته، فيتعلم منه، وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال والعلم، وربما يفيد وربما لا يفيد؟ فكيف يخسر في الحال عملًا نقدًا على توهم علم! وذلك غير جائز، بل ينبغي أن يتعلم لله ويعبد الله ويخدم المعلم لله، لا ليكون له في قلبه منزلة، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة، فإن العباد أُمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره. وكذلك من يخدم أبويه لاينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين، ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضًا. وأما الزاهد فينبغي له

أن يلـزم قلبه ذكـر الله والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واسـتعظامهم محلـه، فـإن ذلـك يغرس الرياء في صـدره حتى تتيسر عليـه العبادات في خلوتـه به، وإنما سكوته لمعرفة الناس بزهده واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه.

قـال إبراهيـم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تعلمت المعرفة من راهب يقال له سـمعان، دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سـمعان، منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سـبعين سـنة، قلـت: فما طعامك؟ قال: يـا حنيفي، وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال: في كل ليلـة حمصـة، قلت: فما الذي يهيـج من قلبك حتى تكفيك هـذه الحمصة؟ قال: ترى الديـر الـذي بحذائك؟ قلـت: نعم، قال: إنهـم يأتوني في كل سـنة يومًا واحـدًا فيزينون صومعتـي ويطوفـون حولها ويعظموني، فكلما تثاقلت نفسي عـن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة! فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر في قلبـي المعرفة، فقال: حسـبك أو أزيدك؟ قلت: بلى، قـال: انزل عن الصومعة، فنزلت فـأدلى لي ركـوة فيها عـشرون حمصة فقال لي: ادخـل الدير فقد رأوا مـا أدليت إليك، فلما دخلـت الديـر اجتمع عليَّ النصارى فقالوا: يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشـيخ؟ قلت: مـن قوتـه، قالوا: فما تصنـع به ونحن أحـق به؟ ثم قالوا: سـاوم! قلت: عـشرون دينارًا فأعطـوني عشريـن دينارًا فرجعت إلى الشـيخ فقال: يا حنيفي، ما الـذي صنعت؟ قلت: بعته منهم، قال: بكم؟ قلت: بعشرين دينارًا، قال: أخطأت! لو سـاومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك، هذا عز مَنْ لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده؟ يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة.

والمقصـود: أن استشـعار النفس عز العظمة في القلوب يكـون باعثًا في الخلوة وقد لا يشـعر العبد به، فينبغي أن يلزم نفسـه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائـم بمثابة واحدة، فلو تغيروا عن اعتقادهـم له لم يجزع ولم يضق به ذرعًا إلا كراهة ضعيفـة، إن وجدهـا في قلبه فيردها في الحـال بعقله وإيمانه، فإنه لـو كان في عبادة واطلع

الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعًا ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه، ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه.

ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان، أحدهما غني، والآخر فقير، فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه، ولا كرامة إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع، فيكون مُكرِمًا له بذلك الوصف لا بالغني، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء فهو مُراءٍ أو طمّاع، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة، والنظر إلى الأغنياء بخلافه، فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير؟ وقد حكي أنه لم يُرَ الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري، كان يُجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه. نعم لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تُقدِّم الغني عليه في إكرام وتوقير البتة، فإن الفقير قد يكون أكرم على الله من الغني، فإيثارك لا يكون طمعًا في غناه ورياءً له، ثم إذا سوَّيت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير، وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي، كما قال ابن السماك لجارية له: ما لي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة؟ فقالت: الطمع يشحذ لسانك. وقد صدقت! فإن اللسان ينطلق عند الغني بما لا ينطلق به عند الفقير، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير. ومكائد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تُخْرِج ما سوى الله من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات، ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات، وعلم أنّه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه،

فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة وعوّد نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها، فبدنه كل يوم يزداد نحولًا لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانًا لشدة احتمائه، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكَّر في توالي الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك إلى الموت المفرِّق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة الأعداء به، ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكّر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنيء وبدن صحيح وقلب رخي وأمر نافذ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات، فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته وفي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل، خوفًا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك، ورجاء أن ينجو من عذابه، فخفَّ ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد، ثم علم أن الله كريم رحيم لعباده المريدين لمرضاته [ولم يزل] بهم رؤوفًا رحيمًا ولو شاء لأغناهم عن التعب، ولكن أراد أن يبلوهم ويعلم صدق إرادتهم حكمة منه وعدلًا، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحَطَّ عنه الأعباء وسهّل عليه الصبر، وحبب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على [ترك] الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمدّه بمعونته، فإن الكريم لا يُضيع سعي الراجي ولا يُخيِّب أمل المحب وهو الذي يقول: «**من تَقرَّب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا**»، ويقول تعالى: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم أشدّ شوقًا» [قلتُ: لم يرد بسندٍ صحيح ما يدل على نسبة فعل الاشتياق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ]، فليُظهر العبد في البداية جدّه وصدقه وإخلاصه ولينتظر من فضل الله وكرمه عن قريبٍ ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده